من أسرار الصلاة

للأستاذ محمد عبد الشافعى

الصلاة لغة هى الدعاء . واصطلاحا . أقوال وأفعال تفتتح بالتكبير وتختتم بالتسليم . وهى صلة بين العبد وربه . والصلة نسبة رابطة بين شيئين ومتى سقطت إحدى طرفى النسبة سقط الطرف الآخر . فإذا لم يكن المرء حاضرا فى الصلاة بقلبه لا تتحقق له صلة بالله وإن أدى صورة الصلاة التى يسقط الفرض بها . وقد أشار إلى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله « ليس للمرء من صلاته إلا ما عقل منها » وقد نص الكتاب والسنة على فرضيتها . أما الكتاب فيقول الله تعالى (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) ويقول جل وعلا (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا) ويقول جل شأنه (أقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات) أما السنة — فيقول لنا صلوات الله عليه « الصلاة عماد الدين من أقامها فقد أقام الدين ومن ضيعها فقد هدم الدين » ويقول صلى الله عليه وسلم « من لقى الله وهو مضيع للصلاة فلا يعبأ الله بشىء من حسناته » ويقول صلوات الله عليه « من ترك الصلاة عمداً فقد كفر » وما ورد فى ذلك كثير . وكونها فرض فهذا ولا شك أمر مجمع عليه . وهى كغيرها من الفرائض لم يفرضها الحق على عباده لأمر يعود عليه فيكون مثله كأحدنا إذا كلف خادمه بشىء يعود عليه نفعه تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً وإنما فرضها الحق جل وعلا لما فيها من أسرار وفوائد جمة تعود على عبده فكان كمثل الطبيب الذى يدعو مريضه لشرب الدواء النافع حتى يبرأ من علته ويصل بنفسه إلى السلامة والعافية مما ألم به . فإن أطاع المريض قوله فلنفسه وإن خالف فعليها ولا يعود على الطبيب من طاعته وعصيانه شىء — وإذا كان الحق تبارك وتعالى أمرنا بإقامة الصلاة فى قوله (أقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل) فليس المراد من إقامة الصلاة تأدية صورتها مع الغفلة فيها وإنما المراد من إقامتها ما بينه لنا الحق بقوله فى كتابه (أقم الصلاة لذكرى) فكل صلاة خلت من ذكر واستحضار لعظمة المذكور فهى غير مقبولة عند الله عز وجل إلا أن يشاء الله يفهم من قوله صلى الله عليه وسلم « ليس للمرء من صلاته إلا ما عقل منها »

وقوله صلوات الله « من صلى صلاة لوقتها واسبغ وضوءها واتم ركوعها وسجودها وخشوعها عرجت وهى بيضاء مسفرة تقول حفظك الله كما حفظتنى . ومن صلى صلاة لغير وقتها ولم يسبغ وضوءها ولم يتم ركوعها ولا سجودها ولا خشوعها عرجت وهى سوداء مظلمة تقول ضيعك الله كما ضيعتنى حتى إذا كانت حيث شاء الله لفت كما يلف الثوب الخلق فيضرب بها وجهه وهذا ولا شك دليل واضح على عدم قبولها والعياذ بالله وهذه الصلاة لا تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر لأنها خلت من الخشوع الناشئ عن إشراق نور الجلال الإلهى وما ذلك فى الحقيقة إلا لإعراض قلب صاحبها عن الله فى الصلاة وانشغاله بغيره ، ولو حضر القلب لأشرق فيه نور الجلال وخشعت الجوارح لسلطانه وكان صاحبها من المفلحين كما قال تعالى (قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون) وإذا فما كل مصل مقيم وكل صلاة خلت من خشوع إنما هى فى الحقيقة كجسد بلا روح وعبثا أن يقدم الإنسان جارية لأحد الملوك لا روح فيها وإن تجملت . لذلك نرى السلف الصالح رضوان الله عليهم كانوا أشد الناس حرصا على حضور القلب منهم فى الصلاة حتى كانوا يعدون الغفلة سيئة لا بد أن يتبعوها بحسنة تمحها . ولقد ثبت أن أبا طلحة صلى فى بستان له فأعجبه وهو فى صلاته وبسى طار فى الشجر يلتمس مخرجا له فاتبعه ببصره فسهى فى الصلاة فلم يدركم صلى ؟ فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم وما أصابه فى الفتنة ثم قال يا رسول الله هو صدقة فضعه حيث شئت كما ثبت ذلك من غيره فى عهد عثمان رضى الله عنه إلا أن ذلك كان يصلى فى حائط له فيه نخل والنخل مطوقة بثمرها فنظر إليها فأعجبته ولم يدركم صلى كذلك فذكر ذلك لعثمان رضى الله عنه وقال له هو صدقة فاجعله فى سبيل الله عز وجل فباعه عثمان بخمسين ألفاً — ثم للصلاة مكانة خاصة فى الإسلام هى بالنسبة إليه عماده كما قال صلوات الله عليه « الصلاة عماد الدين فمن أقامها فقد أقام الدين ومن ضيعها فقد هدم الدين » ولها مكانة خاصة عند الحق جل وعلا . بينها رسول الله صلى الله عليه وسلم لنا بقوله « ما افترض الله على خلقه بعد التوحيد أحب إليه من الصلاة ولو كان شئ أحب إليه منها لتعبد به ملائكته فمنهم راكع ومنهم ساجد ومنهم قائم وقاعد » أما ما يعود على المرء من الصلاة فأمور كثيرة . منها ما يتعلق بالماضى ومنها ما يتعلق بالحال ومنها ما يتعلق بالاستقبال . أما ما يتعلق

بالماضى ، فيقول صلى الله عليه وسلم فيما رواه مسلم فى صحيحه « مثل الصلوات الخمس كمثل نهر عذب غمر بباب أحدكم يقتحم فيه كل يوم خمس مرات فما ترون ذلك يبقى من درنه قالوا لا شىء ؟ قال صلى الله عليه وسلم إن الصلوات الخمس تذهب الذنوب كما يذهب الماء الدرن » ويقول صلوات الله عليه « إن الصلوات كفارة لما بينهن ما اجتنبت الكبائر » . أما ما يتعلق بالحال فيقول الله تعالى (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر) وذلك لأن الإنسان إذا ما افتتح نهاره بصلاة الصبح وعلم أنه بعد قليل فى صلاة الظهر سيعرض على من لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء استحى من ربه أن يدخل إليه فى حضرته وهو ملوث بادران المعصية وراقب نفسه وهواه واتقى الله عز وجل حيث كان فإذا ما انتهى من صلاة الظهر لازمه ذلك المعنى إلى أن يتشرف بالمثول بين يدى الحق جل وعلا فى صلاة العصر وهكذا فينشأ من ذلك الحال دوام المراقبة لله فى جميع الحركات والسكنات فتعصم جوارح العبد من الوقوع فى الزلل وما عصمت جوارح العبد من معصية الله إلا وازداد القلب فيه نوراً وصفاء فيصبح مستعدا للدخول فى حضرات القرب المشار إليها بقوله جل وعلا (فاسجد واقترب) فينعم المرء بالقرب من سيده فتقر به عينه كما قال صلى الله عليه وسلم وجعلت قرة عينى فى الصلاة أو أرحنا بها يا بلال » . وليس للمحب الصادق بعد لقائه بمحبوبه إلا الأنس به أما ما يتعلق بالاستقبال فيقول صلى الله عليه وسلم « خمس صلوات كتبهن الله على العباد فمن جاء بهن ولم يضيع منهن شيئاً استخفافا بهن كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة . ومن لم يأت بهن فليس له عند الله عهد إن شاء عذبه وإن شاء أدخله الجنة » وهذا بعض ما ورد لا كل ما ورد على سبيل الحصر فى أسرار الصلاة — فالصلاة صلة بين العبد وربه بها يطمئن القلب وفيها تقر العين وتنعم الروح بجميل الوصال — وما أحكم ابن عطاء الله السكندرى حيث يقول — ليكن همك إقامة الصلاة لا وجود الصلاة — الصلاة طهرة للقلوب من أدناس الذنوب واستفتاح لباب الغيوب . الصلاة محل المناجاة ومعدن المصافاة تتسع فيها ميادين الأسرار وتشرق فيها شوارق الأنوار . علم وجود الضعف منك فقلل عددها وعلم احتياجك إلى فضله فكثر إمدادها — فسبحان من أكرم المذنبين بعفوه وأقر أعين المحبين بقربه ووفى للمصلين بعهده فاختار لهم جنات الفردوس نزلا .